علي الغاياتي

الشاعر المعاند

أن يثور الإنسان من أجل كرامته.. فهو بهذا يحقق إنسانية الإنسان.. وأن يثور من أجل وطنه.. فهو بهذا صاحب رسالة نضالية لا تضيع من ذاكرة التاريخ. ومن هؤلاء الذين حملوا الوطن رسالة فى قلوبهم نابضة مشتعلة بلا انطفاء الشاعر والكاتب على الغاياتي.

والغاياتي من مواليد دمياط عام 1885 لأسرة دينية عريقة.. ولهذا دخل الكتاب طفلاً لم يتجاوز السادسة من عمره.. وحفظ القرآن فى عامين فقط.. ثم أرسله أبوه إلى المعهد الديني.

وكانت دعوة جمال الدين الأفغاني قد انتشرت فى أنحاء البلاد.. وعكف عليها بعض الطلاب وفى مقدمتهم على الغاياتي.. فأعجب بها وبما تدعو إليه من نبذ الخرافات التى لحقت بالإسلام.. كالتوسل بغير الأعمال الصالحة.. والتقرب من الأولياء.. والتوكل والاستسلام.

ويضيق شيخ المعهد بالغاياتي فطرده ومنعه من تلقي الدروس.. فخرج الغاياتي من المعهد ليعمل مدرساً بإحدى المدارس الابتدائية الخاصة.

ثم رحل الغاياتي إلى القاهرة فى عام 1907 والتقي بالأدباء والمشايخ كما التقى بخليل مطران شاعر القطرين وعرض عليه تجاربه الشعرية فأعجب بها.. وجعله محرراً بجريدة (الجوائب المصرية) التى كان يصدرها مطران.

وحدث أن تجرأ أحد مشايخ المعهد الديني بدمياط ودعا إلى رفض

الخرافات والبدع التى اعتنقها شيخ المعهد وبعض شيوخه.. فحوكم هذا الشيخ أمام مجلس إدارة الأزهر.. وحكم عليه بمنعه من التدريس وقطع مرتبه..

فأخذ الغاياتي يكتب فى هذا الموضوع فى (الجوائب).. فدبر له أعداؤه مكيدة تتعلق بالتجنيد فى الجيش.. وسجن فى قشلاق العباسية إثني عشر يوماً (1907) تحت التحقيق لاقي فيها العنت والتعذيب ثم أطلق سراحه.. وفى ذلك يقول موضحاً موقفه من العلماء الذين خاصموه:

يا معشر العلماء أصبح دينكم

هدفاً لسهم الناقد المتتبعِ

فإلى متى لا تعقلون وقد غدت

أعمالكم أحدوثة المستفظعِ

إنى نصحت لكم فلم ينفعكمُ

نصحى وذنبى أنه لم ينفعِ

يا ويل من عبدوا القبور وأشركوا

بالله بين توسلٍ وتضرعِ

يا قوم إن أولئك العلماءَ قد

جعلوا الشريعة سلماً للمطمعِ

فهلم ننبذ رأيهم ونرى لنا

رأيا تنزه عن فساد المنزعِ

ونــشُــنُّ غــــارتنا عـــليهم كـــلما

شـــــنوا عـــلينا غـــارة المتجمــعِ

حتــى نـــردهمُ إلـــى الإســـلام أو

نـــذر العمائـــمَ بالمقـــام الأشـــنعِ

وهنــاك يـصبح ديــن أحمـد خالـصاً

لله .. لا للأوليـــــــاءِ الأربـــــعِ

وتتوالى الأحداث الوطنية وينخرط الغاياتي فى الحزب الوطني الذى كان يرأسه مصطفى كامل.. فأخذ يسانده ويكتب الأشعار الوطنية التى تندد بالاحتلال والخديوي.. واستبداد الأجانب.. ومصادرة الحرية..

وفى عام 1910 أصدر الغاياتي ديوانه (وطنيتي).. ويمثل هذا الديوان ما تميز به الغاياتي من وطنية وشجاعة وجرأة فقد تناول مسلك الخديوي عباس ومسلك الإنجليز ووزراء الحكومة وانتقد تصرفاتهم انتقادا لاذعا.. من ذلك قوله مخاطباً الخديوي عباس:

أعبــاسُ هــذا آخـــر العهــد بيننــا

فــلا تخْــشَ مـــنا بعـــد ذاك عتابــا

أيرضـــيك فينـــا أن نكـــون أذلـــة

ننـــال إذا رمـــنا الحـــياة عقابـــا

ونيــأس مـــن آمـــالنا فيــك كلــما

قــضيتَ علينــا أن نكــون غــضابا

وأرضـــيتَ أعـــداء الـــبلادِ وأهلهـــا

وأصـــليتنا بعـــــد الـــــوفاقِ عـــذابا

رويـــدك يـــا عبـــاس لا تبلـــغ المـــدى

ولا تـــــستمع للظـــــالمين خـــــطابا

ألا أمطـــــر الله الـــــوزارة نقمـــــة

ولا بلغـــت ممـــــن تـــــروم مرامـــا

تحـــاول أن تقـــضى علينـــا بإثمهـــا

ولكـــن ســـتلقى بعـــد ذاك أثامـــا

وزارة خـــــدَّاع أقـــــامته بيننـــــا

يـــد الحاكـــمين الآثـــمين فقامـــا

وكان الغاياتي قد أهدى نسخة من الديوان إلى صاحب المؤيد وفيه نقد للصحيفة.. فاستعدى صاحب المؤيد السلطة عليه ونشر بعض القصائد التى تدينه ومنها:

رب إن البـلاد أرهـقها الظلـــــ ـمُ وحاقت بأهـلها البأساءُ

رب إن الصدور أحرجها الوجـ ـدُ وأودت بحملها الأرزاءُ

فتدارك بلطفـك النيـل حـتى لا تجارى حياة مصر دمـــاءُ

ومن القصائد الأخرى أيضا (نحن والاحتلال) والتى يقول فيها:

كفكفى يا مصـر دمـع الوجلِ وارتقب يا نيلُ نيْل الأملِ
جاوز الصبر المدى والصـدر لم يبق فيه الوجد من محتملِ
كـم شـقاء كـم بلاء كـم أذى أى حال بعـد ذا لم يُـحلِ
ضجَّت الأهـرامُ فـى موقفها وجـرى النيل بدمعٍ هطِلِ

ثم يقول مستحثا همم الشعب:

أيها الشعب أفق ولى الظـــلا م ولاح النــور للمستبصرِ
فـدع النوم وقف مستخـبراً هل لمصر فى الورى من خبرِ
وانهض اليوم ولا ترقب غدا وادفـع الشـر بسـيف الحذرِ
إنـما الآلام آمـال وفـــى قـدرة الشـعب مـدار القدرِ

وكان الديوان تضمن مقدمتين أحداهما للزعيم محمد فريـد والأخـرى للزعيم عبد العزيز جاويش.

ويتلقى ولاة الأمـر فى مـصر هـذا الـديوان بغـضب وعنـف ليـصادر الديوان فور صدوره.. ويقدم صـاحبه للمحاكمـة.. ويحكـم عليـه غيابيـا بالحبس سنة..

ونصح الغاياتي بمغادرة البلاد على وجه السرعة قبـل أن يقـبض عليـه ويودع السجن.

ويتنكر الغاياتي فى اسم آخر (محمود) وفى هيئة أخرى غير هيئته المعّممة ويبحر بصحبة ضابط تركي تعرف عليه إلى الآستانة.. ويـصل إليهـا فى 12 يوليو 1910.

وكان الحكم على الغاياتي وعلى كاتبي المقدمة.. فأدخل الكاتبان السجن ونفى الغاياتي نفسه إلى الآستانة.. وهناك التقى بعدد من كبار العرب والشرقيين المقيمين هناك مثل محمد رشيد رضا وعزيز المصري.. وسليمان البارونى وغيرهم.

ثم يرحل الغاياتي إلى سويسرا وتعلم الفرنسية ونزل فى (بنسيون) صغير.. وتعرف إلى الدارسين المصريين هناك.. وأخذ يدرَّس العربية لمن يرغب.. ويتزوج بإحدى فتيات سويسرا.. وأخذ يكتب فى الجرائد الأوربية حتى قامت ثورة 1919 فأسس فى سويسرا جريدة (منبر الشرق) يدافع فيها عن مصر وقضاياها وكانت تصدر بالفرنسية وفيها صفحات بالعربية.

وظل الغاياتي يصدر الصحيفة فى سويسرا تباعاً منذ عام 1912 حتى عودته إلى الوطن (1937) وفيها نشر أبياته:

أدركوا الإسلام فى دولته هتك العادون من حرمته

أمطروا النيران فى أوطانه صعقوا الأرواح فى أمته

حاولوا تمزيقه فى أرضه ومضى كل إلى طعنته

ولما زار الشاعر مصر عام 1934 ورأى سوء الأحوال السياسية الحزبية نشر قصيدة يقول فيها:

فلا الدستور فى أمن ولا الوزراء والقصرُ

ولا استقلال فى بلدٍ به العادون قد قروا

معاقله لهم حصنٌ ونحن لجندهم أزرُ

ولولا أننا شِيعٌ يحارب شطرنا الشطرُ

لما أضحـــى لنا ظـــلٌ ولا أمســـى لنـــا ذكرُ

ويعود الغاياتي إلى وطنه من منفاه رجلاً محنّكاً عاقلاً فيلسوفاً قائلا:

باسم الكنانـة واسـم شـعب نـاهضٍ

لا باســـم أحـــزاب ولا زعـــماءِ

كـل يـزول وينقـضي أمـا الحمـى

فـــوديعة الآبـــاء للأبنـــاءِ

ويصدر (منبر الشرق) بالعربية.. ويعيـد طبـع ديوانـه (وطنيتـي) عـام 1938 لكن القلم السياسي فى قسم عابدين صادر الـديوان مـرة أخـرى.. فأصدر طبعته الثالثة عام 1947 بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.

ويطول به العمر.. ويـشهد قيـام ثـورة 23 يوليـو 1952 وتـأميم قنـاة السويس (1956) ورحيل الاحتلال البريطاني عـن مـصر فيرتـاح قلبـه.. ويرحل عن الدنيا راضيا فى 26 أغـسطس عـام 1956 بعـد رحلـة نـضال ونفى وعذاب واضطهاد صنعت منه فارساً من فرسان الكلمة الصادقة.